مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

فِي التَّسْلِيْمِ النَبَويّ:

بَلَاغَةُ القَصْدِ فِي التَّوَاصُلِ بَيْنَ المُقَدَّسِ وَالإِنْسَانِ
دِرَاسَةٌ فِي بَلَاغَةِ الخِطَابِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيْفِ

روعة عمر أحمد أقرع [1]

[1] جامعة حلب/ كلية التربية / قسم اللُّغة العربيَّة، سوريا؛
nesrine.sh.91@gmail.com
دكتوراه في اللغة العربية / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٥/٥/٢٤	٢٠٢٥/٧/٢٦	٢٠٢٥/٩/٣٠

DOI: 10.55568/t.v23i35.31-52

المجلــد (٢٣) العــدد (٣٥)
رَبِيع الآخِر ١٤٤٧هـ . أيلول ٢٠٢٥م

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

يُعالـج هـذا البحـث مفهـوم "بلاغـة القصـد" بوصفـه مدخـلاً نقديًّـا لفهـم الخطـاب النبـويِّ الشـريف، مـن خـلال مقاربـة تداوليَّـة بلاغيَّـة، وينطلـق البحـث مـن فرضيَّـة أنَّ الخطـاب النَّبـويِّ لا يكتفـي بالتبليـغ بـل يتقصَّـد التأثيـر، ويعمـل علـى تحقيـق مقاصـد دينيَّـة وتربويَّـة واجتماعيَّـة عبـر أسـاليب لغويـةٍ دقيقـةٍ ومراعيـة للسـياق، وقـد ركَّـز البحـث علـى تحليـل نمـاذج مـن الأحاديـث النبويَّـة مـن حيـث بنيتهـا البلاغيَّـة، ووظائفهـا التداوليَّـة، كالقصـد التوجيهـيِّ، والتعليمـيِّ، والإنـذاريِّ، والبشـاريِّ، مبيِّنًـا كيـف تتكامـل نيَّـة المتكلِّـم مـع مقتضـى الحـال، وقـد أظهـرت النتائـج أنَّ بلاغـة القصـد تمثِّـل حلقـة وصـل بيـن القداسـة والإنسـانيَّة، وأنَّهـا أداة إصلاحيَّـة فعَّالـة تُفعِّـل كلَّ عناصـر التواصـل ضمـن وحـدة خطابيَّـة مؤثِّـرة.

الكلمـات المفتاحيَّـة: الخطـاب النبـويُّ، بلاغـة القصـد، التداوليَّـة، المقاصـد، الفعـل التواصلـيّ، البلاغـة النبويَّـة.

Rhetoric of Intention in Communicating between Sanctity and Humanity: Study on Rhetoric of Noble Prophetic Discourse

Raw'ah Omar Ahmed Aqra' [1]

[1] University of Aleppo / Faculty of Education, Syria;

nesrine.sh.91@gmail.com

PhD. in Arabic Language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
24/5/2025	26/7/2025	30/9/2025

DOI: 10.55568/t.v23i35.31-52 Volume (**23**) Issue (**35**) Rabi' Al-Akhir 1447 AH September 2025 ADD

Abstract:

This research addresses the concept of "rhetoric of intent" as a critical approach to understanding the discourse of Honourable Prophet through a pragmatic-rhetorical lens. The study is based on the premise that the discourse of the Prophet discourse does not merely transmit information but deliberately seeks to influence and achieve religious, educational, and social goals through precise, context-aware linguistic methods.

More into the point, the current paper focuses on analyzing examples of Hadiths in terms of their rhetorical structure and their pragmatic functions, such as directive intent, educational intent, warning intent, and glad tidings intent. It demonstrates how the intention of the speaker integrates with the demands of the situation. The findings reveal that the rhetoric of intent serves as a link between the sanctity and the human. It is an effective reformative tool that activates all elements of communication in an influential discursive unit.

Keywords: Honorable Discourse of Prophet, Rhetoric of Intent, Pragmatics, Intentions, Communicative Act, Prophetic Rhetoric.

المقدِّمة:

تتَّسم البلاغة النبويَّة بطبيعة مركَّبة تجعلها تتجاوز حدود التعبير الجماليِّ إلى أفقٍ تواصليٍّ عميق، يرتكز على القصديَّة بوصفها بُعدًا محوريًّا في إنتاج المعنى، ومن خلال هذا المنظور، لا يُعدُّ القول النبويُّ مجرَّد بنيةٍ لغويَّةٍ، إنَّه فعل تواصليٌّ يحمل مقصدًا إصلاحيًّا وتربويًّا موجِّهًا إلى المتلقِّي ضمن سياق ثقافيٍّ ودينيٍّ محدَّد، ويأتي هذا البحث ليكشف عن ملامح "بلاغة القصد" في الخطاب النبويِّ، بوصفها منهجًا لفهم العلاقة المركَّبة بين النصِّ والمقصد، وبين البنية والأسلوب، وبين القول ونيَّة قائله، ويسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على الوظائف التداوليَّة للقصد النبويِّ، من توجيهٍ وتعليمٍ وبشارةٍ وإنذارٍ، وبيان قدرة البلاغة النبويَّة على المواءمة بين القداسة والإنسانيَّة، وقد اعتُمِد في هذا البحث منهجٌ مركَّبٌ يجمع بين ثلاثة مناهج نقديَّة، وهي المنهج التداوليُّ البلاغيُّ، والمنهج التحليليُّ النَّصِّيُّ، والمنهج المقاصديُّ، لتحقيق قراءة شاملة للخطاب النبويِّ تجمع بين بعديه البلاغيِّ والدلاليِّ، ومقاصده العليا، فالمنهج التداوليُّ البلاغيُّ ينطلق من النظر إلى الخطاب بوصفه فعلاً تواصليًّا، يربط بين المتكلِّم (النَّبيِّ) ﷺ والمخاطب (الإنسان)، ويركز على المقاصد والنيات الكامنة خلف القول، لا على بنيته اللُّغويَّة الظاهرة فحسب، وهو منهج ملائم لدراسة الحديث النبويِّ لما يحمله من توجيه وتأثير، ولما يتطلَّبه من تفاعل وفهم واستجابة من المتلقِّي، والمنهج التحليليُّ النَّصِّيُّ يُعنى بتحليل الأحاديث النبويَّة من حيث تركيبها اللُّغويِّ وسماتها البلاغيَّة، مثل المجاز، والإيجاز، والتكرار، وهو منهج يساعد على الكشف عن التناسب بين البنية النصِّيَّة للحديث وبين الغايات التعبيريَّة والتواصليَّة التي يسعى إليها، أمَّا المنهج المقاصديُّ فيركِّز على البعد الغائيِّ للخطاب النبويِّ، من خلال ربطه بمقاصد الشريعة الكبرى كحفظ الدين والنفس والعقل، ويساعد على إظهار أنَّ البلاغة النبويَّة لا تنفصل عن بعدها الإصلاحيِّ والتربويِّ، ومن

خلال هذا التكامل المنهجيِّ، يسعى البحث إلى تقديم قراءة عميقة لبلاغة القصد في الخطاب النبويِّ، تُراعي تداخُل البنية والأسلوب والمعنى والمقصد ضمن وحدة بلاغيَّة متكاملة.

أوَّلًا- الإطار النظريُّ:

١- بلاغة القصد:

تُعدُّ "بلاغة القصد" من المفاهيم المحوريَّة في فهم الخطاب، لا سيَّما الخطاب النبويِّ الشريف، إذ إنَّها تربط بين البنية اللُّغويَّة للقول والمقاصد الكامنة خلفه، والبلاغة في أصل اللُّغة، تدلُّ على حسن الكلام مع فصاحته، وبلوغه الغاية المرادة منه، فالبليغ من الناس هو من يصنع من كلامه تعبيرًا عمَّا في صدره، فيُبلغ به غايته من متلقِّيه بأحسن تعبير، وإذا عدنا إلى أصل المادة (بلغ) في المعاجم اللُّغويَّة، وجدنا أنَّ معناها يدلُّ على الوصول والانتهاء إلى الغاية. تقول: "بَلغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغًا وبَلاغًا: وصَلَ وانْتَهَى، وأَبْلَغَه هُوَ إِبْلاغًا وبَلَّغَه تَبْلِيغاً، وتَبَلَّغَ بِالشَّيْءِ: وصَلَ إِلى مُرادِه...، والبَلاغُ: مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ ويُتَوَصَّلُ إِلى الشَّيْءِ الْمَطْلُوبِ"[١]، وعليه، فإنَّ البلاغة في معناها الأصليِّ هي تحقيق الهدف والغاية، والوصول إلى المراد بمختلف الوسائل المتاحة.

و(القصد) في معناه اللُّغويِّ لا يبتعد كثيرًا عمَّا تدلُّ عليه مادَّة (بلغ) في لسان العرب، فقد جاء فيه: "القصد: الاعتماد والأَمُّ، وقصده يقصده قصدًا، وقصد له، وقال: قصدني إليه الأمر... والقَصْدُ: إِتيان الشَّيْءِ... وقَصَدْتُ قَصْدَه: نَحَوْتُ نَحْوَهُ"[٢]، فكلا المفهومين – البلاغة والقصد– يدوران لغويًّا حول تحقيق الغاية والوصول إلى الهدف.

---

١ ابن منظور, لسان العرب, ط٣ بيروت: دار صادر, (١٤١٤هـ), مادة (بلغ).

٢ ابن منظور, مادة (قصد).

و"البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[٣]، أي إنَّها تتطلَّب توظيف الفصاحة بما يناسب مقتضى الحال، وهذه التعريف من أشهر التعريفات الكلاسيكيَّة للبلاغة، وقد استقرَّ عليه جمهور البلاغيِّين العرب منذ القرن الثالث الهجريِّ، وخاصَّة في المدرسة التي مثَّلها الجرجانيُّ والسكاكيُّ والزمخشريُّ.

وأمَّا القصد في البلاغة العربيَّة فقد أشار إليه عبدُ القاهرِ الجرجانيُّ بقوله: "واعلم أنَّ الكلام إذا لم يكن قصد قائله إفهام السامع، لم يكن كلامًا في الحقيقة، وإن كان بصورته كلاماً"[٤]، فالقصد إلى الإفهام هو ما يمنح الكلام حقيقته، أي إنَّ الكلام لا يُعدُّ كلامًا بحقٍّ إلَّا إذا كان قائله يقصد إفهام السامع، وبهذا يجعل الجرجانيُّ النية التواصليَّة شرطًا وجوديًّا للكلام، وليس مجرَّد عنصر إضافيٍّ، فيتقاطع بذلك مع مفاهيم معاصرة مثل: "القصد التواصليّ" عند سيرل، و"مبدأ التعاون" عند غرايس، وتكشف رؤية الجرجانيِّ عن وعي بلاغيٍّ مبكِّرٍ بطبيعة اللُّغة كفعل تواصليٍّ موجَّه إلى الآخر، وهو ما يُشكِّل نواة النظريَّة التداوليَّة التي لم تتبلور إلَّا في القرن العشرين.

والقصد في اللِّسانيَّات الحديثة "فعل حين يُقصد به إحداث أثر في السامع، لا مجرَّد نقل معلومة"[٥]، فاللُّغة لم تعد تُفهَم بوصفها أداةً لنقل المعلومات فقط، بل بوصفها وسيلة لفعل شيء، وهذا يتوافق مع التحوُّل التداوليِّ الذي شهده الفكر اللِّسانيُّ منذ منتصف القرن العشرين، على يد فلاسفة اللُّغة كما ينسجم على نحو لافت مع مقولة عبد القاهرِ الجرجانيِّ السابقة.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ القصد في الدراسات التداوليَّة ارتبط بالبحث في المعنى اللُّغويِّ

---

٣ العاكوب, عيسى علي. المفصل في علوم البلاغة العربية المعاني- البيان – البديع سوريا: مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية, (٢٠٠٢), ٤٨.

٤ عبد القاهر الجرجاني, دلائل الإعجاز, تحقيق. محمود محمد شاكر, ط٥ القاهرة: دار المعارف, (١٩٩٢), ٥٨.

٥ أوستين, جون لانغشو. كيف تفعل الأشياء بالكلمات, ترجمة. سعيد الغانمي, ط١ بيروت: المنظمة العربية للترجمة, (٢٠٠٧), ٢٦_٢٧.

مـن جوانـب متعـدِّدة، "خاصَّـةً عنـد فلاسـفة نظريَّـة الاسـتعمال في المعنـى، مثـل فتغنشـتاين المتأخِّـر (Wittgenstein)، وأوسـتين (Austin)، وغرايس (Grice)، وستراوسـون (Strawson)، وسـيرل (Searle)، الذيـن منحـوا المتكلِّـم ومقاصـده مكانـة محوريَّـة في تفسـير المعنـى، وقـد خالـف هـؤلاء مـا درج عليـه الدارسـون منـذ بدايـات النظريَّـات الصوريَّـة للُّغـة، فقـد أظهـرت بحوثهـم وجـود توتُّـر دائـم بـين الألفـاظ والمقاصـد المتوخَّـاة... ومـن هنـا، رأوا ضرورة التراجـع عـن دراسـة اللُّغـة بوصفهـا تراثًـا صوريًّـا جامـدًا، والسـعي بـدلاً مـن ذلـك إلى اختزالهـا في فاعليـة القصديَّـة"[٦]، أي إنَّ المتكلِّـم يبتغـي تحقيـق مسـعى معيَّن مـن خـلال الـكلام؛ ويقصـد شـيئًا محـدَّدًا مـن خطابـه.

وعليـه فـإنَّ بلاغـة القصـد هـي النَّظـر إلى الخطـاب بلحاظـه فعـلاً تواصليًّـا هادفًـا، يجمـع بـين فصاحـة اللَّفـظ ومطابقـة الحـال، وبـين نيَّـة المتكلِّـم في التأثـير والتوجيـه والإفهـام، وهـي جسـر مفاهيميٌّ يصـل الـتراث البلاغـيِّ العـربيِّ باللِّسـانيَّات التداوليَّـة الحديثـة، ويُعـدُّ مدخـلًا فاعـلًا لفهـم الخطابـات ذات الرسـائل المقصـودة.

٢- علاقة القصد بالبلاغة واللِّسانيَّات التداوليَّة:

إنَّ علاقـة القصـد بالبلاغـة واللِّسـانيَّات التداوليَّـة علاقـة محوريَّـة، يتقاطـع فيهـا البعـد الجـماليُّ للـكلام (البلاغـة) مـع البعـد التواصلـيِّ الوظيفـيِّ للُّغـة (اللِّسـانيَّات التداوليَّـة)، ففـي البلاغـة العربيَّـة الكلاسـيكيَّة، لا يُعـدُّ الـكلام بليغًـا مـا لم يُـراعِ مقتـضى الحـال، وهـذا يقتـضي نيَّـةً مسـبقةً لـدى المتكلِّـم في توجيـه كلامـه بـما يناسـب السـامع والمقـام، وبذلـك، تصبـح البلاغـة فـنَّ التعبـير المقصـود والموجَّـه نحـو غايـة تواصليَّة، أمَّـا القصد في اللِّسـانيَّات التداوليَّـة فهـو الحقـل الـذي يـدرس اللُّغـة في سـياق الاسـتعمال، ويركِّـز عـلى مـا يقصـده المتكلِّـم، لا فقـط مـا يقولـه، فالنيَّـة التوصيليَّـة ومبـدأ التعـاون وأفعـال

٦ وشن, دلال. "القصد والمجاز في البلاغة العربية (عبد القاهر الجرجاني نموذجاً)," مجلة الممارسة اللغوية, العدد١٢. المجلد١ (٢٠٢١): ١٥٠.

الكلام كلُّها تدور حول ما يقصده المتكلِّم عند قوله لشيء، وهو ما يجعل القصد جوهر المعنى التداوليِّ، والجسرَ المفهوميَّ الذي يربط البلاغة باللِّسانيَّات التداوليَّة؛ ففي حين تهتم البلاغة بحُسن الأداء، تهتمُّ التداوليَّة بغرض المتكلِّم وتعتني عناية واضحة ببحث الصلة بين المعنى ومقصد المتكلِّم، وتنظر إلى العلاقات بين الكلمات على أنَّها تتضمَّن أفعالاً قصديَّة من جانب المتكلِّمين[٧]، ويلتقيان في أنَّ المعنى الحقيقي للكلام لا يُفهم من ظاهره فقط، إنَّما من قصده وسياقه وأثره على المتلقِّي.

وجليٌّ أنَّ بلاغة القصد تُبنى على أربعة عناصر مترابطة، وهي المرسل الواعي بنيته، والرسالة المصاغة لتحقيق تلك البنية، والمتلقِّي المُستهدَف بالأثر والتأثير، والسياق الذي يُوجِّه شكل الرسالة ومضمونها، ويُشكِّل هذا التكامل بين العناصر أساسًا لفهم الخطاب كفعل تواصليٍّ مقصود، يتداخل فيه البعد البلاغيُّ والجماليُّ مع البعد التداوليِّ والوظيفيِّ.

ثانيًا- الرسول بوصفه وسيطًا بين المقدَّس والإنسان:

المُرسل في الخطاب النبويِّ ليس مجرَّد متكلِّم بشريٍّ، إنَّه رسول يحمل رسالة إلهيَّة إلى البشر، وهنا تتجلَّى خصوصيَّة الخطاب النبويِّ في كونه وسيطًا بين المقدَّس والإنسان، تتداخل فيه أبعاد الوحي والتبليغ والتأويل، لتمنح القصد بعدًا مركَّبًا يتجاوز الأبعاد البلاغيَّة والتداوليَّة المعتادة، قال تعالى:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٣-٤)، فالرسول ﷺ "لا يتكلم من تلقاء نفسه، بل كلُّ ما يقوله من وحي الله ﷻ وتعليمه وإلهامه"[٨]، أي إنَّ الخطاب النبويَّ مشروط بمصدره العلويِّ، والقصد فيه ليس صادرًا عن هوى المتكلِّم أو مزاجه، إنَّه قصد إلهيٌّ موحى به، وعليه فإنَّ بلاغة القصد في هذا الإطار

٧ إسماعيل, صلاح. النظرية القصدية في المعنى عند جرايس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٥، الرسالة ٢٣٠ الكويت: مجلس النشر العلمي, (٢٠٠٥), ٣٠,٣٤,٣٥.

٨ ابن كثير, ، تفسير القرآن العظيم, تحقيق. سامي بن محمد السلامة, ط٢ (الرياض: دار طيبة للنشر, ١٩٩٩), ٢٤٤١.

هي تجسيد لمقاصد إلهيَّة تُبلَّغ عبر لسان النبيِّ ﷺ، مع الحفاظ على مقتضيات الحال والسياق البشريِّ الذي يخاطبه. وهذا ما يمنح الخطاب النبويَّ طابعه المركَّب، الجامع بين القداسة والإنسانيَّة، وبين الفصاحة الربانيَّة ومقتضيات المخاطَبين.

ثالثًا- ملامح بلاغة القصد في الخطاب النبويِّ الشريف:

١- وضوح المعنى وبساطة اللُّغة:

- قال رسول الله ﷺ: "مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا، فقال: يا قوم، إنِّي رأيتُ الجيش بعيني، وإنِّي أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذّبته طائفة، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم"[٩].

يستخدم النبي ﷺ في هذا الحديث أسلوب التمثيل لتقريب الفكرة الكبرى المتمثِّلة في (البعثة والرسالة) إلى ذهن المتلقِّي، مستعينًا بصورة حياتيَّة مألوفة لأهل الجزيرة آنذاك، وهي صورة رجلٍ يسبق جيشًا ليُحذِّر قومًا، فالحديث يوظِّف لغة بسيطة مفهومة لا غموض فيها، تلامس الواقع اليومي للسامع، ولذا يحقِّق بلاغة القصد عبر الوضوح والاختصار والفاعليَّة.

والقصد الرئيس من هذا الحديث هو التحذير والإنذار، وهو مقصد جوهريٌّ في البلاغة النبويَّة، ويظهر ذلك التحذير والإنذار في التكرار الإنذاريِّ (النجاء النجاء)، الذي يحاكي نداء الخطر، ويستدعي استجابة فوريَّة، فالمتكلِّم يريد إحداث أثر نفسيٍّ وسلوكيٍّ في المتلقِّي، وهذا هو جوهر القصد، ويُلحظ التناسب بين الصورة والمقصد، فالتمثيل النّبويُّ بنية توصيليَّة هادفة، تخدم بلاغة القصد، وترسِّخ المعنى في الذهن من خلال مشهد حيٍّ يعكس واقعًا دينيًّا.

والنبيُّ ﷺ يمارس دوره كنذير عريان، أي إنَّه نذيرٌ صادقٌ ومُستعجل في تحذيره، وهو

٩ محمد بن إسماعيل البخاري, الجامع الصحيح, تحقيق. مصطفى ديب البغا, ط٣ (دمشق: دار ابن كثير, ٢٠٠٢), كتاب الإيمان حديث رقم ٦٠, ٥٩.

تعبيرٌ عربيٌّ قديم يشير إلى مَن يُنذر قومه قبل أن يتمكَّن من أن يلبس ثيابه، وغايتُه أن يخبرهم بأسرع ما يمكن، وهذه الصورة القويَّة تؤكِّد قوَّة القصد عند المرسل، واستشعاره لخطورة الموقف وضرورة الاستجابة العاجلة، ولا ينفصل هذا التمثيل عن المقاصد الشرعيَّة الكبرى، فالدعوة للنجاة لا تقتصر على النجاة الدنيويَّة، لأنَّها تُشير إلى النجاة الأخرويَّة من عذاب الله ﷻ، وتعكس مقصد حفظ الدين والنفس، وضرورة الإيمان والاستجابة للرسالة، وهذا يُبيّن أنَّ بلاغة الخطاب النبويِّ مشبعة بالقصد الإصلاحيِّ والهداية، وعليه فإنَّ هذا الحديث يمثِّل نموذجًا متكاملًا لبلاغة القصد في الخطاب النبويِّ، إذ يتجلَّى فيه وضوح الرسالة وارتباطها بالسياق، وقوَّة التأثير النفسيِّ والمعنويِّ، واستخدام الأسلوب التمثيلي لتقريب المعنى، وتحقيق الأهداف التواصليَّة والدينيَّة للخطاب، وهو شاهد بليغ على أنَّ البلاغة النبويَّة بلاغة غائيَّة مقصودة، تُوجِّه الخطاب لتحقيق النجاة والهداية، وتُفعِّل عناصر التواصل كافَّة (المرسل، الرسالة، المتلقِّي، والسياق).

- قال رسول الله ﷺ "إنَّما أنا لكم مثل الوالد، أعلِّمكم، فإذا أتى أحدُكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يستنجِ بيمينه"[١٠].

يُقدّم هذا الحديث نموذجًا فريدًا لبلاغة القصد الأخلاقيِّ والتربويِّ، فالنبيُّ ﷺ قبل أن يبيِّن الحكم الفقهيَّ المتعلِّق بآداب قضاء الحاجة، يسبقه بتمهيد وجداني مقصود: (إنَّما أنا لكم مثل الوالد، أعلِّمكم)، لخلق بيئة نفسيَّة إيجابيَّة، وتليين القلوب قبل الأمر والنهي، وهذا التقديم يدلُّ على وعي المقاصد النفسيَّة والاجتماعيَّة للخطاب، ويجعل بلاغة الرسول الكريم تتجاوز البيان إلى التربيَّة، ومن ناحية أخرى يُؤسِّس هذا الحديث علاقةً أبويَّة بين المرسل والمتلقِّي، لأنَّ النبيَّ ﷺ مُربٍّ رحيم، وقوله: (مثل الوالد) يُفهم منه البُعد العاطفيِّ والوجدانيِّ الذي يُضفي بُعداً إنسانيًّا مقصديًّا على الخطاب، فيجعل القبول أسهل والتطبيق

١٠ البخاري, كتاب الزكاة ,حديث رقم ١٣٩٥, ٢٣٠.

أسرع، وهـذا ينـدرج ضمـن مفهـوم بلاغـة القصـد القائمـة عـلى تهيئـة السـامع للاسـتجابة بالحنـو والمثـال القريـب، ثـمَّ بالحجـة.

والمدقِّـق في الحديـث يلحـظ أنَّ اللُّغـة واضحـة وبعيـدة عـن التكلُّـف: (القبلـة، اليمـين، يستدبر...إلخ)، وكلُّهـا ألفـاظ مألوفـة في سـياق الحيـاة اليوميَّـة، هـذه البسـاطة اللُّغويَّة تخـدم القصـد التعليمـيَّ والعمـليَّ للحديـث، فالغـرض أن يفهمـه النـاس ويطبِّقـوه، لا أن يُعجَبـوا بفصاحتـه فقـط، وهـذا جوهـر البلاغـة النبويَّـة.

وتظهـر الوظيفـة الإرشـاديَّة المباشرة للخطـاب، حيـث تتقاطـع نيَّـة المتكلِّـم (النبـيّ)ﷺ مـع السـياق العمـليِّ المتعلِّـق بسـلوك يومـيّ، وتتجـلَّى بلاغـة القصـد في ضبـط العـادات اليوميَّـة وفـق هـديٍ تشريعـيٍّ، دون أن يشـعر المتلقِّـي بثقـل التكليـف، ووراء الأوامـر المتعلِّقـة بعـدم اسـتقبال القبلـة أو الاسـتنجاء باليمـين يكمـن بُعـد مقاصـديٌّ تشريعـيٌّ، يتمثَّـل في تعظيـم شـعائر الديـن (القبلـة)، وتعزيـز الطهـارة والاحـترام، فبلاغـة الحديـث هنـا تمتـدُّ إلى مقصـده الشرعـيِّ، وتُظهـر كيـف أنَّ البلاغـة النبويَّـة أداة لضبـط السـلوك وفـق القيـم الإسـلاميَّة العليـا، ويمكـن القـول: إنَّ الحديـث نمـوذج راقٍ مـن بلاغـة القصـد التربـويِّ في الخطـاب النبـويِّ، وذلـك لأنَّـه يهيِّـئ المتلقِّـي نفسـيًّا لتقبُّـل التعليـم، ويربـط الحكـم الشرعـيَّ بسـياق وجـدانيٍّ أبـويٍّ، ويسـتخدم لغـة بسـيطة وفعَّالـة، ويحقِّـق مقصـدًا تربويًّـا وسـلوكيًّا واضحًـا، وهـو شـاهد عـلى أنَّ الرسـولﷺ يتقـن فـنَّ التوصيـل المقصـود، المراعـي لأحـوال النفـس والسـياق والغايـة.

٢- التدرُّج في البيان:

- بَعَـثَ النَّبِـيُّ ﷺ مُعَـاذَ بْـنَ جَبَـلٍ إِلَى الْيَمَـنِ فَقَـالَ: "إِنَّـكَ تَـأْتِي قَوْمـاً أَهْـلَ كِتَـابٍ فَادْعُهُـمْ إِلَى شَـهَادَةِ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلا اللهُ وَأَنِّي رَسُـولُ الله فَـإِنْ هُـمْ أَطَاعُـوكَ فَأَعْلِمْهُـمْ أَنَّ اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ افْـتَرَضَ عَلَيْهِـمْ خَمْـسَ صَلَـوَاتٍ فِي كُلِّ يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ فَـإِنْ هُـمْ أَطَاعُـوكَ فَأَعْلِمْهُـمْ أَنَّ اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ قَـدْ افْـتَرَضَ عَلَيْهِـمْ صَدَقَـةً فِي أَمْوَالِهِـمْ تُؤْخَـذُ مِـنْ

أَغْنِيَائِهِمْ فَتُوضَعُ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ"[١١].

يُعَدُّ هذا الحديث الشريف من أظهر الشواهد على بلاغة القصد في الخطاب النبويِّ، لا سيَّما في جانب التدرُّج في البيان، الذي يُعَدُّ سمة أساسيَّة في التربية والدعوة والتوجيه العمليِّ، إذ يُبرز إدراك النبيِّ ﷺ العميق للسياقات النفسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة للمتلقِّي.

فقد بنى خطابه على التدرُّج المرحليِّ في تبليغ الأحكام، فبدأ بالأهمِّ فالأهمُّ، فقال لمعاذ بن جبل: (إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أنَّ لا إله إلَّا الله وأنِّي رسول الله...)، وإن أجابوه، يدعهم إلى الصلوات، ثُمَّ إلى الزكاة، ثُمَّ إلى التحذير من الظلم، وهذا الترتيب يتجاوز مسألة تنظيم المعلومات، فهو تدبير بلاغيٌّ مقصود يراعي حال المخاطَب ودرجة تقبُّله، ويعبِّر عن بلاغة القصد التي تهدف إلى الإقناع، لا الإغراق.

وثمَّة شيء مهمٌّ للغاية في الحديث النبويِّ، وهو مراعاة الخلفيَّة الدينيَّة والثقافيَّة فقوله:ﷺ: (إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب) يدلُّ على وعي النبيِّ ﷺ بخلفيَّة المخاطَبين، لذا يوجِّه الدعوة منذ البداية توجيهًا ملائمًا للسياق الثقافيِّ، فيبدأ بالتوحيد والرسالة دون الغوص في التفريعات، وهذه بلاغة تواصليَّة تداوليَّة تدرك أنَّ فهم المتلقِّي هو مفتاح فعاليَّة الرسالة.

وممَّا ميَّز الحديث وضوح التسلسل وارتباط المضمون بالقصد، فالتوحيد هو الأساس في العقيدة، ثُمَّ تأتي الصلاة بلحاظها صلة العبد بربِّه، ثُمَّ الزكاة بلحاظها صلة العبد بمجتمعه، وهذا يُشير إلى قصد إصلاحيٍّ شامل روحيٍّ، وسلوكيٍّ، واجتماعيٍّ، قصدٍ يعكس عمقَ بلاغة الخطاب النبويِّ وشموليَّته. وفي التحذير الختاميِّ توجيهٌ مقصديٌّ أخلاقيٌّ، إذ ينهي النبيُّ ﷺ الحديثَ بالتحذير

١١ البخاري, حديث رقم ١٣٥٩, ٢٠٣.

من أخذ (كرائم الأموال)، ومن (دعوة المظلوم)، وهذا ربط بلاغيٌّ دقيق بين تطبيق الشريعة وتحقيق العدل، كما تظهر في الحديث الشريف الوظيفة التربويَّة، فهو لا يُرسل معاذًا بتكليفٍ إداريٍّ فقط، إنَّما يُعطيه خريطة دعويَّة بلاغيَّة تُعلِّمه كيف يتدرَّج، وكيف يقدِّم، وكيف يحذِّر، وهذا في ذاته نموذجٌ تربويٌّ من الرسول للمبلِّغين والدعاة في كلِّ عصر، وهو من جوامع بلاغته ﷺ في الجمع بين التشريع والتعليم، وبهذا يتَّضح أنَّ هذا الحديث يُظهر مزيجاً بديعاً من بلاغة القصد من خلال تدرُّج مدروس يُراعي المتلقِّي، وتوجيه قائم على معرفة الخلفيَّة الثقافيَّة، وترتيب ينسجم مع الأولويَّات العقديَّة والاجتماعيَّة، وبلاغة لا تنفصل عن القيم والأخلاق، بلاغة إصلاحيَّة هادفة، تجعل من الخطاب النبويِّ وسيلة لتغيير الإنسان والمجتمع بالتدرُّج، واللين، والعدل، والوضوح.

إذ تتبدَّى في الحديث بلاغة الإيجاز مع كثافة المعنى، فالحديث وجيز في ألفاظه، غير أنَّه في الوقت نفسه يحمل معاني تشريعيَّة، ودعويَّة، واجتماعيَّة، وعقائديَّة، فكلُّ جملة فيه تؤسِّس لمقصد واضح.

وخلاصة القول أنَّ هذا الحديث يُجسِّد بلاغة القصد في الخطاب النبويِّ من خلال وضوح الهدف ومشروعيَّة الوسيلة، والجمع بين الظاهر والباطن في الحكم، والتوازن بين الإيمان والعمل، والتأسيس لشرعيَّة العدل والحقوق في الإسلام، فهو توجيه متكامل يعكس بُعدًا مقاصديًّا وتداوليًّا وبلاغيًّا، يجعل من الخطاب النبويِّ وسيطًا فاعلاً بين المقدَّس والإنسان، ويوجِّه السلوك ويضبط العلاقة بين الفرد والمجتمع والدولة.

٣- التأثير الوجدانيُّ والإقناعيُّ:

قال ﷺ: "اللَّهمَّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون"[١٢].

١٢ البخاري, حديث رقم ٢٩٣٠، ٤٨٣.

قال النبيُّ ﷺ هذا الحديث الشريف في أشدِّ لحظات الأذى والعداء من قومه، ويُعدُّ هذا الحديث من أبرز النماذج على بلاغة القصد في بعدها الوجدانيِّ والإقناعيِّ في الخطاب النبويِّ، فحين يُواجَه الإنسان بالإيذاء، يكون الردُّ الطبيعيُّ هو الغضب أو الانتقام، لكن النبيَّ ﷺ يرتقي بالخطاب إلى مستوًى وجدانيٍّ نبويٍّ فريد، فيجعل من الرحمة والصفح رسالة بلاغيَّة قائمة بذاتها.

فقوله ﷺ: (اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون) يكشف عن نيَّة إصلاحيَّة عميقة، فهو يدعو بالمغفرة لقوم يؤذونه لأنَّهم يجهلون، وكأنَّه يربط بين الجهل والخطأ، وبين العلم والمغفرة، ليُبرز المقصد التربويَّ والتوعويَّ للخطاب النبويِّ ألا وهو الإصلاح لا الانتقام.

والحديث يُحرِّك في المتلقِّي مشاعر الدهشة والإعجاب والتأثُّر، لأنَّه يُخالف المتوقَّع، ويقلب الموقف من موقع الضحيَّة إلى مقام القدوة الأخلاقيَّة، وهذا التأثير العاطفيُّ يُقنع الناس بالموقف الذي يتحوَّل إلى خطاب وجدانيٍّ بالغ التأثير.

والخطاب من الأرض إلى السماء، فالنبيُّ ﷺ اختار أن يُخاطب الله ﷻ لا قومه، فجاء الخطاب دعاءً، يتضمَّن طابعًا روحيًّا يتجاوز الزمن والمكان، ويُرسِّخ في وعي السامع أنَّ البلاغ النبويَّ متَّصل دومًا بالمقدَّس، وأنَّ القصد في الخطاب يشمل الابتهال إلى الله ﷻ لتحقيق المقصد الأعلى، وهو الهداية والمغفرة، وفي خطابه لله (سبحانه وتعالى) مفاجأة للمتلقِّي، إذ كان يُتوقع أن يخاطب من تعرضوا له بالظلم، غير أنَّه فاجأ المتلقِّي بالتوجُّه إلى الخالق، وهو لم يخاطبهم بالعتاب أو النصح المباشر، إنَّما دعا لهم أمام الله ﷻ، وهذا أسلوب إقناعي غير مباشر، يجعل المتلقِّي يستحي من موقفه، ويُعيد النظر في سلوكه، بما يشبه ما يعرف ببلاغة الصمت، التي تقنع بالعظمة لا بالجدال، وفي هذا الحديث تتمثَّل أرقى مستويات بلاغة القصد الوجدانيَّة والإقناعيَّة، حيث يتحوَّل الخطاب إلى وسيلة

لتربية العدوِّ قبل الصديق، وللتأثير الوجدانيِّ العميق، ولبيان مقام النبوَّة في التعامل مع الجهل بالحكمة والدعاء والمغفرة.

رابعًا- الوظيفة التداوليَّة للقصد النبويِّ:

١- القصد التوجيهيُّ:

من أبرز الوظائف التداوليَّة في الخطاب النبويِّ القصد التوجيهيُّ، الذي يرمي إلى توجيه السلوك البشريِّ وتقويمه، بما يحقِّق المقاصد الشرعيَّة العليا، ويتجلَّى هذا القصد في توجيهات النبيِّ ﷺ التي تأتي في صيغة جامعة موجزة، تحمل أبعادًا تشريعيَّة وأخلاقيَّة وتربويَّة.

- قال النبيُّ ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار"[١٣].

في الحديث النبويِّ رسالة تمتاز بالإيجاز البليغ المحمَّل بالدلالة العميقة، فالحديث يتكوَّن من كلمتين تُكوِّنان قاعدة تشريعيَّة كبرى، تُؤسِّس لمبدأ فقهيٍّ وأخلاقيٍّ، وهو نفي إلحاق الضرر ابتداءً أو مقابلة الضرر بمثله، وهذا الإيجاز يجسِّد بلاغة القصد، إذ يُحيل على منظومة سلوكيَّة كاملة بأسلوب مختصر وفعَّال، وتظهر في الحديث قوَّة التوجيه المباشر، فالنفي في الحديث (لا) يُفيد التحريم والتنزيه، ويعمل على ضبط العلاقات الاجتماعيَّة بما يمنع الاعتداء والانتهاك، ويحثُّ المتلقِّي على المعاملة بالحسنى، وسياق الحديث يفضي إلى أنَّ القصد يتجاوز مجرَّد بيان حكم، فهو توجيه عمليٌّ فوريٌّ للسلوك في التعاملات اليوميَّة، فضلاً عن تحقيق المقاصد الكُلِّيَّة للشريعة، فالحديث -كما يظهر بوضوح- يُعدُّ من جوامع الكلم، ويدور حول مقصد حفظ النفس والمال، ويُشكِّل مرجعًا أصيلاً في أبواب المعاملات، والحدود، والقصاص... إلخ.

١٣ مالك بن أنس, الموطأ, تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي, ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي, ١٩٨٥), حديث رقم ١٢٣٢، ٤١٨.

والخطاب موجَّه إلى متلقٍ عامٍّ، وللوعي الجمعيِّ لجماعة المسلمين، وهذا من شأنه أن يُعزِّز الوظيفة التداوليَّة للقصد في بعدها الجماعيِّ، ويؤسِّس لثقافة عامَّة تحترم الحقوق، وترفض الظلم، وتُعلي من شأن التوازن والعدالة.

– قال رسول الله ﷺ: "من ضارَّ ضرَّه الله، ومن شاقَّ شقَّ الله عليه"[١٤].

ثمَّة توجيه سلوكيٌّ قائم على العدل الإلهيِّ، فالحديث يرسِّخ مبدأ المعاملة بالمثل من جهة العدل الإلهيِّ، غير أنَّه لا يُجيز الضرر بالمثل للبشر، فيُبيِّن أنَّ الله ﷻ هو الذي يتولَّى مؤاخذة الظالم والمعْتَدِي، والقصد هنا توجيهيٌّ رادع، يمنع الإنسان من الإضرار بغيره أو شقِّ عصا الجماعة، ويُرسِّخ مبدأ العدالة الإلهيَّة كضمان اجتماعيٍّ، ويتَّسم الحديث بالتناظر التركيبيِّ (من ضارَّ ضرَّه الله/ من شاقَّ شقَّ الله عليه)، وهو تناظر يُبرز العاقبة السلوكيَّة للفعل البشريِّ، ويُرسِّخ في وعي المتلقِّي أنَّ القصد الإلهيَّ عادل، ويُقابل السلوك العدوانيَّ بعقوبة مناسبة، ويدفعه لا شعوريًّا إلى الانضباط، كما يستخدم الحديث أسلوبًا يُخاطب الوجدان والضمير الدينيَّ؛ فالمؤمن الذي يعلم أنَّ الله ﷻ سيضره إذا ضرَّ غيره، سيتراجع عن فعله، وهذا البعد يُجسِّد القصد التداوليَّ في جانب التأثير النفسيَّ المقصود، وهو عنصر أساس في بلاغة القصد النبويِّ، والشقُّ الثاني من الحديث: (ومن شاقَّ شقَّ الله عليه)، فيه تركيز على من يُحدث الفُرقة أو يعارض الجماعة بالعدوان أو النكاية، وهنا القصد التوجيهيُّ غايته حماية النسق الاجتماعيَّ والدينيَّ من التفكُّك أو التنازع، بما ينسجم مع مقاصد الشريعة في حفظ الجماعة ووحدة الصَّفِّ، وبهذا يكون الحديث قد بيَّن أنَّ القصد التوجيهيَّ في الخطاب النبويِّ لا يقتصر على تقديم النصيحة أو إصدار الأوامر، ويتضمَّن إرساء قواعد أخلاقيَّة واجتماعيَّة بعقوبات معنويَّة

١٤ البخاري, الجامع الصحيح, كتاب المظلوم ,حديث رقم ٢٣١٥,, ٣٦١.

رادعـة، غايتهـا تحقيـق التـوازن بـين الفـرد والمجتمـع في ضـوء العـدل الإلهـيِّ.

٢- القصد التعليميُّ:

- قال رسول الله ﷺ: "من يرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين"[١٥].

يربـط الحديـث بـين إرادة الخـير الإلهيَّـة وبـين الفقـه في الديـن، ويمنـح العمليَّـة التعليميَّـة بُعـدًا روحيًّـا ومقصـدًا سـاميًا، فالتعليـم هنـا ليـس مجـرَّد تحصيـل معلومـات، إنَّـه دليـل عـلى عنايـة إلهيَّـةٍ واختيـار ربَّـانيٍّ، ولا شـكَّ أنَّ هـذا التعالـق بـين العمليَّـة التعليميَّـة والعنايـة الإلهيَّـةٍ يحفِّـز الدافـع الداخـليَّ لـدى المتلقِّـي للتعلُّـم والتفقُّـه، فالمؤمـن حـين يعلـم أنَّ التفقُّـه علامـة رضـا واختيـار، يُقبـل عـلى العلـم برغبـة وشـغف، وبلاغـة القصـد هنـا تقـوم عـلى الربـط بـين الفضـل والتعلُّـم، وهـو أسـلوب فعَّـال نفسـيًّا وتربويًّـا، وفي الحديـث تسـليط للضـوء عـلى الفقـه في الديـن تحديـدًا، لا عـلى مطلـق العلـم، فالعلـم النافـع هـو مـا يُقـوِّم السـلوك ويُهـذِّب النفـس ويُقـرِّب إلى الله ﷻ، لا مـا يُسـتخدم للجـدل أو الريـاء، أي إنَّ القصـد التعليمـيَّ النبـويَّ يتجلَّى في توجيـه بوصلـة التعلُّـم نحـو الغايـة الشرعيَّـة، وقـد جـاء الحديـث في عبـارة موجـزة، لكنَّهـا مشـحونة بالمعنـى، وهـي سـمة أساسـيَّة مـن سـمات البلاغـة النبويَّـة في التعليـم، تجمـع بـين قِـصر العبـارة، وعمـق المقصـد، فالرسـول ﷺ لا يعلِّـم بكثـرة الـكلام، بـل بكثافتـه ودقَّتـه.

- قـال رسـول الله ﷺ: "مـن سـأل النـاس أموالهـم تكثُّـراً فإنَّـما يسـأل جمـراً، فليسـتقلّ أو ليسـتكثر"[١٦].

الحديـث يُعلِّـم قيمـة عفَّـة النفـس، لكنَّـه لا يكتفـي بصيغـة تقريريَّـة أو وعظيَّـة، فيسـتخدم تصويـرًا مؤثِّـرًا، وثمَّـة تشـبيه يفهـم مـن سـياق الخطـاب، (فمـن يسـأل أمـوال النـاس تكثُّـرًا كأنَّـه يجمـع جمـر النـار)، وهـذا التشـبيه يُحـدِث صدمـة وجدانيَّـة تهـدف إلى

١٥ البخاري, حديث رقم ٧١، ٦٢.

١٦ مسلم, الجامع الصحيح ,كتاب الإيمان,(د.ت.), كتاب الزكاة، حديث رقم ١٠٤٥، ٦٨٩.

ترسيخ الفكرة في عقل ووجدان السامع، ويتَّخذ القصد التعليميَّ طابعًا تحذيريًّا قويًّا، يعكس طبيعة التعليم النبويِّ الذي يمزج بين الترغيب والترهيب، فطلب المال بلا حاجة ليس سلوكًا محايدًا، بقدر ما هو جريمة معنويَّة توجب التنبيه، وهو ما يقدِّمه الرسول بأسلوب موجز وحادٍّ التأثير.

وختم الحديث بقوله: (فليستقلّ أو ليستكثر)، وهنا يمنح المتلقِّي حرِّيَّة الخيار، لكن بعد تبيين العواقب الوخيمة، وهذه طريقة تعليميَّة ذكيَّة، تجعل المتعلِّم يتحمَّل مسؤوليَّة فعله بعد أن فُتحت له أبواب الوعي، وجلي أنَّ في الحديث تحصين اجتماعيٌّ وسلوكيٌّ، فالرسالة التعليميَّة في الحديث لا تتوقَّف عند الفرد، إنَّما تخدم المنظومة الاجتماعيَّة، فالنهي عن سؤال الناس تكثُّراً يعزِّز قيم الكرامة الشخصيَّة والتكافل الحقيقيِّ، ويحدُّ من ظواهر الاستغلال والاحتيال، لذا فإنَّ القصد النبويَّ هنا يحمل وظيفة إصلاحيَّة مجتمعيَّة أيضًا، ويعكس بلاغة القصد التعليميِّ النبويِّ القائمة على الإيجاز، والتصوير، والتحذير، وتحميل المتلقِّي مسؤوليَّة قراره، فهوﷺ يعلِّم بأسلوبٍ عميق كيف تكون عفَّة النفس والاستغناء من أهمِّ مظاهر الكرامة الإنسانيَّة، ويؤسِّس بذلك لقيمة أخلاقيَّة أصيلة ضمن المنظومة الإسلاميَّة.

٣- القصد الإنذاريُّ والبشاريُّ:

- قال رسول الله ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً"[١٧].

في هذا الحديث يُوجِّه النبيُّ ﷺ خطابه إلى الوجدان الإنسانيِّ من خلال استدعاء مفارقة وجدانيَّة حادَّة، وهي الضحك مقابل البكاء، وهذا التباين يحمل بعدًا دلاليًّا، يبرز حجم ما يجهله الناس من حقائق الغيب والآخرة ومصيرهم الأبديِّ، وهي المعرفة التي يحملها الرسول، فتُلقي بثقلها النفسيِّ عليه، ويتجلَّى القصد الإنذاريُّ في هذا الحديث بوضوح، فالرسول لا يُفصح عمَّا يعلم، إنَّما يكتفي

١٧ البخاري, الجامع الصحيح, كتاب الرقاق، حديث رقم ٦٤٨٦، ١٠١٢.

بعبارة (لو تعلمون ما أعلم)، ليُثير في نفوس السامعين الرهبة والقلق الوجوديَّ، ويجعلهم يتخيَّلون هول ما خفي عنهم، وهذا الغموض المقصود يعظِّم الأثر الإنذاريَّ، لأنَّه دون تفصيل، وهو من أبلغ أساليب التخويف النبويِّ.

والحديث يحفِّز السلوك والوجدان من خلال مفردات (البكاء، والتأمُّل) بهدف الإقلاع عن الغفلة، وهذا الهدف من وظائف القصد النبويِّ البشاريِّ والإنذاريِّ الذي يحرِّك الإنسان من الداخل نحو التوبة والعمل، بإيقاظ مشاعر الخشية والخشوع، ويُلحظ أنَّ الحديث في تركيبه موجز، إذ لا يزيد على بضع كلمات، غير أنَّه يحمل رؤية كاملة للعلاقة بين المعرفة والإنذار، وهذه الكثافة في المعنى مع الاقتصاد في اللَّفظ هي من خصائص بلاغة القصد النبويِّ، حيث يُختصر المقصد العظيم في تعبير بسيط بالغ التأثير.

- قال رسول الله ﷺ: "بشِّروا ولا تُنَفِّروا، ويسِّروا ولا تُعَسِّروا"[١٨].

الحديث يوجِّه خطابًا مباشرًا إلى الدعاة والمبلِّغين عن الله ﷻ، واضعًا لهم منهجًا بلاغيًّا وتربويًّا في التواصل مع الناس، فالقصد هنا يتجاوز نقل المعلومة الدينيَّة إلى تحقيق أثر إيجابيٍّ في المتلقِّين، قائم على التيسير والتبشير، لا على التعنيف والتنفير، والحديث يقوم على مقابلات لفظيَّة ومعنويَّة: (بشِّروا/ نَفِّروا، يسِّروا/ عَسِّروا)، وهي صيغة بلاغيَّة فعَّالة تُرسّخ في ذهن المتلقِّي مبدأ التوازن في الخطاب، وهذه المقابلات تعبِّر عن بلاغة القصد الإصلاحيِّ، الذي يهدف إلى جذب القلوب لا إرهاقها.

والأمر بالتبشير هنا ليس مجرَّد تلطيف للخطاب، إنَّه ترجمة لروح الرسالة النبويَّة ذاتها، التي قال الله (سبحانه وتعالى) عنها: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء:١٠٧) فالتبشير يُعبِّر عن رحمة الله ﷻ وفتحه أبواب الأمل والتوبة، وهو مقصد رئيس في الخطاب النبويِّ الشريف، يُعوِّض ما قد يولِّده الخطاب الإنذاريُّ من رهبة.

١٨ مسلم, الجامع الصحيح, كتاب المساجد، حديث رقم ٢٨٥٩، ١٢٢١.

ويُلحظ في الحديث النبويِّ الواقعيَّة النفسيَّة في توجيه الخطاب، فالحديث يُقرُّ ضمنًا أنَّ الناس لا يستجيبون للحقِّ إن قُدِّم لهم بقسوة أو غلظة، وأنَّ التيسير في تقديم الحِكَم، والتبشير في طرح الثواب، هما الوسيلتان الأكثر تأثيرًا واستدامة، وبهذا يتحقَّق القصد النبويُّ التربويُّ في أبلغ صوره، التي تتمثَّل في تعليم الناس بوسائل تحفظ كرامتهم النفسيَّة وتحفِّزهم للامتثال.

ويمكن القول: إنَّ هذا الحديث يختصر جوهر القصد البشاريِّ في الخطاب النبويِّ، من خلال تأكيده على الرفق واليسر كخيار بلاغيٍّ وتربويٍّ.

الخاتمة:

إنَّ "بلاغة القصد" في الخطاب النبويِّ تمثِّل بنية دلاليَّة وتواصليَّة متكاملة، تُجسِّد أعلى درجات الوعي بفاعليَّة اللُّغة وقدرتها على التأثير والتوجيه والإفهام، فالخطاب النبويُّ، بما يحمله من مرجعيَّة مقدَّسة ومقاصد إصلاحيَّة، يُقدِّم نموذجًا فريدًا لتداخل البلاغة مع التداوليَّة، إذ لا يُبنى القول فيه إلَّا على قصد واعٍ، يتجاوز سطح العبارة إلى عمق الفعل التواصليِّ.

لقد كشفت القراءة التحليليَّة أنَّ أبرز سمات بلاغة القصد في الحديث النبويِّ تتجلَّى في وضوح المعنى وبساطة اللُّغة، والتدرُّج في البيان، والتوازن بين البعد الجماليِّ والوظيفة التداوليَّة، إلى جانب الإيجاز الكثيف المشحون بالدلالة، وأظهر البحث كيف يوظِّف الخطاب النبويُّ أساليب التمثيل، والتشبيه، والمفارقة الوجدانيَّة، لبناء خطاب يراعي السياق النفسيَّ والاجتماعيَّ والثقافيَّ للمتلقِّي، ويعمل على تحفيزه لا مجرَّد إخباره.

ومن النتائج اللافتة أيضاً أنَّ الخطاب النبويَّ يمارس بلاغة القصد عبر مستويات متعدِّدة، توجيهيَّة، وتعليميَّة، وإنذاريَّة وبشاريَّة، وهو ما يؤكِّد ثراءه الوظيفيَّ وانفتاحه على مختلف الحقول المعرفيَّة والسلوكيَّة، وقد تبيَّن أنَّ القصديَّة النبويَّة ليست قسرًا ولا تعسّفًا، بقدر ما هي تفعيل دقيق للغة بلحاظها أداة هداية، تستند إلى الحكمة، وتُوازن بين مقتضى الحال ومقصد المتكلِّم، وبناءً على ما تقدَّم، يمكن القول: إنَّ الخطاب النبويَّ يُشكِّل مرجعيَّة تأسيسيَّة لفهم اللُّغة بوصفها فعلاً تواصليًّا ذا مقصد، وإنَّ بلاغة القصد فيه تُعدُّ جسرًا مفاهيميًّا يصل بين تراث البلاغة العربيَّة القديمة ونظريَّات التداوليَّة الحديثة.

المصادر:

القرآن الكريم:

أوستين, جون لانغشو. كيف تفعل الأشياء بالكلمات. ترجمة سعيد الغانمي. ط١. بيروت: المنظمة العربية للترجمة, ٢٠٠٧.

إسماعيل, صلاح. النظرية القصدية في المعنى عند جرايس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٥، الرسالة ٢٣٠. الكويت: مجلس النشر العلمي, ٢٠٠٥.

ابن كثير. ، تفسير القرآن العظيم. تحقيق سامي بن مُحَمَّد السلامة. ط٢. الرياض: دار طيبة للنشر, ١٩٩٩.

ابن منظور. لسان العرب. ط٣. بيروت: دار صادر, ١٤١٤هـ.

البخاري, مُحَمَّد بن إسماعيل. الجامع الصحيح. تحقيق مصطفى ديب البغا. ط٣. دمشق: دار ابن كثير, ٢٠٠٢.

الجرجاني, عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر. ط٥. القاهرة: دار المعارف, ١٩٩٢.

العاكوب, عيسى علي. المفصل في علوم البلاغة العربية المعاني- البيان – البديع. سوريا: مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية, ٢٠٠٢.

مالك بن أنس. الموطأ.تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي. ط١. بيروت: دار إحياء التراث العربي, ١٩٨٥.

مسلم. الجامع الصحيح. كتاب الإيمان, د.ت.

وشن, دلال. "القصد والمجاز في البلاغة العربية (عبد القاهر الجرجاني نموذجاً)." مجلة الممارسة اللغوية, العدد١٢ المجلد ١. (٢٠٢١).

References

The Glorious Qur'an

Austin, J. L. (2007). Kayfa Taf'al al-Ashya' bil-Kalimat. (S. al-Ghanmi, Trans.). (1st ed.). Beirut, Lebanon: Al-Munazzamah al-'Arabiyyah lil-Tarjamah.

Ismail, S. (2005). Al-Nazariyyah al-Qasdiyyah fi al-Ma'na 'ind Grice, Hawliyyat al-Adab wal-'Ulum al-Ijtima'iyyah, 25(230). Kuwait: Majlis al-Nashr al-'Ilmi.

Ibn Kathir. (1999). Tafsir al-Qur'an al-'Azim. (S. b. M. al-Salamah, Ed.). (2nd ed.). Riyadh, Saudi Arabia: Dar Taybah lil-Nashr.

Ibn Manzur. (1414H). Lisan al-'Arab. (3rd ed.). Beirut, Lebanon: Dar Sadir.

Al-Bukhari, M. b. I. (2002). Al-Jami' al-Sahih. (M. D. al-Bugha, Ed.). (3rd ed.). Damascus, Syria: Dar Ibn Kathir.

Al-Jurjani, A. Q. (1992). Dala'il al-I'jaz. (M. M. Shakir, Ed.). (5th ed.). Cairo, Egypt: Dar al-Ma'arif.

Al-'Akoub, I. A. (2002). Al-Mufassal fi 'Ulum al-Balaghah al-'Arabiyyah: Al-Ma'ani - Al-Bayan - Al-Badi'. Syria: Directorate of University Books and Publications, Publications of Aleppo University, Faculty of Arts and Humanities.

Malik b. Anas. (1985). Al-Muwatta'. (M. F. 'Abd al-Baqi, Ed.). (1st ed.). Beirut, Lebanon: Dar Ihya' al-Turath al-'Arabi.

Muslim. (n.d.). Al-Jami' al-Sahih. Kitab al-Iman.

Washin, D. (2021). "Al-Qasd wal-Majaz fi al-Balaghah al-'Arabiyyah (Abdul-Qahir al-Jurjani Namudhajan)." Majallat al-Mumarsah al-Lughawiyyah, 1(12).